



[www.diwanalarab.com](http://www.diwanalarab.com)

مكتبة ديوان العرب تقدم لكم

رواية

النهر لن يفصلني عنك

رمضان الرواشدة

الأردن



الإهداء

إلى من حبها شغل الفؤاد

وقلبي معلق بهواها

المرأة التي تحملت أوجاع قلبي

وسهرتي وسهادي

إلى سهاد

## مقدمة نداء الوحدة وهاجس الاكتمال

بقلم: إبراهيم العجلوني

كان آخر عهدي بالرواية تلك القراءة الثانية لأعمال دوستوفسكي التي قمت بها مطلع التسعينيات، ربما لأهرب من ضجيج السياسة ، ولأستعيد ذلك الإحساس بالشقاء الإنساني الذي استشعرته في قراءتي الأولى مطلع السبعينيات لهذا الروائي العظيم ؛ ولعلني كفتت عن قراءة الروايات لما استغرقني من أعمال الفكر ، ولما أحاول من تأمل واستبصار فيها، فكان أن استبقيت في ذهني ووجداني أنموذجا للرواية هو ما أقيس عليه أو ما اجعله معيارا للفن الروائي .

وكان أن استقر بي الأمر على أن الرواية قوامها الشخصية الإنسانية ذات السمات الواضحة والبنيان النفسي والعقلي المتميز والتخوم السيكلوجية التي يكون عندها الصراع أو التفاعل مع الآخرين في زمان معلوم ومكان معلوم أيضا\*\*

من أجل ذلك وقفت حائرا أمام ما كتبه الصديق رمضان الرواشدة في عمله هذا لأنه أقرب الي أن يكون مونولوجاً روائياً واقعياً في مكان سوى بين الحكاية والشعر ، يأخذ من هذا بطرف ومن ذاك بطرف ، ولأنه مكتوب على ما فيه من رمزية وتوهج بقصدية واضحة تريد لتبعث خطاباً سياسياً في تضاعيف الكلام ؛ ولأن أي تقييم له خارج دائرة هذا المقصد قد يظلمه، أو قد يغيب الرسالة الضمنية فيه في اقل تقدير'

أما لماذا سميت هذا العمل مونولوجاً فلأنه دائرٌ جملةً وتفصيلاً بين الذات المشوقة وذاتها' بين الفرع الممتد شرقي النهر "النهر الذي لن يفصلني عنك" وبين أيكته الوارفة الضاربة جذورها منذ الأزل غريبه' بين المهجة المضطربة في الآفاق والقلب الذي تأوي إليه . بين الفؤاد والوتين، بين قلق التسأل وبرد اليقين . بين هذا الفتى العربي الأردني وبين قدس الأقداس في الأرض المباركة حيث الأم "أمننا جميعاً"، أو الحبيبة، أو الدار التي تنتظر أحبابها\*\*

وعلى أن صديقنا رمضان الرواشدة قد احتقبَ أشياء كثيرة من أزمنة متباعدة ، ومن ذكريات متداخلة متصادية متداعية ، ومن تجارب ذاتية وحقائق تاريخية استدعتها ذاكرة متعبة وتجيد الاختيار في أن ؛ إلا أن ذلك كله كان موظفاً لديه في تجلية حنينه الى الحبيبة غربي النهر ، فهو يلوب بين هذا المعطيات لوب العاشق الذي لا يعنيه منها إلا ما تسيره أو تعلنه من حديث حبه الخالد العظيم' هذا الحب الذي يحول عساكر الغزاة بينه وبين الاكتمال'

ونحن مع رمضان الرواشدة في منولوجه الروائي هذا أمام هاجس إكتمال الذات ، هاجس "الوحدة التي ترف بأجنحتها حوله" أينما توجه ، وليس يخلو من الدلالة هذا الحديث الشجي الذي يسترسل به رمضان عن أضلعه التي

وقد أقف هنا مع الصديق رمضان أسائله لم اختار الملك النبطي ولم يختار خالد بن الوليد أو صلاح الدين أو أيّاً من قادة المسلمين الذين كانت لهم أدوار بارزة في تحرير فلسطين ، ولكنني أؤثر أن أرى في هذا الاختيار توكيداً للعمق التاريخي في مقاومة الغازين ، وإن هذا الحمى العربي منذ كان وهو في صراع مع كل من يريد فصل الذات عن ذاتها، فضلاً عن أن المروءة التي مثلها الحارث وجنوده هي مناخ الإيمان الحقيقي الذي أنار به الإسلام الأرض، إذ أن من لا مروءة له لا دين له كما جاء في الأثر الشريف\*\*

وعلى أن في هذا العمل ما قد يغري الناقد بالخوض في حديث الأجناس الأدبية ، وتقنيات السرد، وأساليب الترسّل، وقضايا النحو، وطرائق التعبير، إلا أنني اجتزئ بتوجيه النظر الى جوهر الخطاب فيه ولب الألباب منه ، وهو هاجس الوصل بين شقي النفس ، وهاجس الوحدة المقدسة بين ضفتي النهر . فذلك هو غاية المرام والمقصد الأسمى للكلام ، وخاصة في مثل هذه الأيام المدلهمة التي تعيشها أمتنا، وأمام ما يوهنها من أسباب التمزق وما يُراد لها من أسباب الهوان\*\*

ومهما يكن الأمر فإننا مع رمضان الرواشدة في "النهر لن يفصلني عنك" أمام عمل أدبي يستجيب لأعمق نداءات الوحدة بين الأردن وفلسطين ، وأمام صورة جميلة من صور الوعي غير الملتبس باستحقاقات هذه الوحدة التي هي مطلب كل عربي حر

ذلك هو لباب هذا النشيد، وبيت هذا القصيد  
وحسبنا به غاية حين تلتبس الغايات، ومرادا حين تصطرع الإرادات\*\*

**عمان 3 حزيران 2006**

يا من عبدتك عن سواك\*إني أسألك حبك وحب من يحبك والعمل الذي  
يبلغني حبك\*آه\*\*إجعل حبك حباً أحب إلي من نفسي ومن أهلي\*\*آه\*\*  
أكشف لي الحجب حتى أراك\* وأنا الذي "أحببتك حين حب الهوى وحباً لأنك  
أهل لذاكا"(\*) فقريني إليك عسى روعي تتراح من الهوى الذي  
ألم بجسمي وأسقمني ، حتى عدت لا أرى أحداً سواك\*  
إن المحب الواله ، يا مولاي، لا يد له من الشكوى، لأنه لا يستطيع الصبر  
على غيبة محبوبته\* ولا تحسب "أن كل من ذاق الهوى عرف الهوى ولا كل  
من شرب المدام نديم (1)"

لقد أثرتك على كل شيء ، فأثرتني على كل شيء\* روعي روحك، وروحك  
روعي\* فمن ترى رأي روعي حلتا بدنا\*لقد دنست ثوب جسمي وحملته  
كثيراً من الذنوب، فجد بعفوك لي فإني على الأبواب منكسر ذليل\*

خطوات قليلة، ويفصلنا الجسر الخشبي اللعين\* عندما رأني مقبلاً نحو  
الجسر هتف بي بلهجتة الآمرة: قف ، فوقفت\* أسرعوا نحوي : كيف وصلت  
إلى هنا؟ لم يعلموا بأني إتبعته روعي المعلقة فوق جبالك يا أورسالم\*  
أعادوني إلى مكان الانطلاق \* دمعتي فرت مني وقلبي غائم، تعلق في  
الحنين إليك\* آه\*\*\* إني أسقط كل ليلة صريع المتاهة\* هاهي القلعة تضميني  
بحنين\* عندما وقفت تلك الليلة فوق أسوارها، ونظرت إلى الغرب رأيت بأني  
اعبر إليك عبر الأثير\* كيف لهذا النهر أن يفصلني عنك، وأنا الشوق عبر  
السنين\* النهر المقدس لم ولن يفصلني عنك يا حبيبتي\*

ويرحل قلبي إلى الأوهام

يطاردني حبي

يتبعني دربي

أسعى إليه

أبت روعي فيه

أهديه عبق الصباح

وروح المساء

وروعة الأحلام

المطر يغلف وجهي بمائه، وأنا اشد الرحيل إليك\*أيمم نحو الجسر الخشبي  
اللعين\*\*\*النهر المقدس عبر آلاف السنين ما عاد يفصل القلب عن القلب\*  
إمرأة تزهو بثوبها المزركش\*\* أغنية الجنوب في ليالي الحصيدة\*\* والحنين  
إليك وسجن القلب/ المينفى\*\*\*\*\*أعود في الليل وحدي لا ماء في قلبي ولا  
مطر\* وحدي ينمو في الضجيج، ويسكن قلبي عصفور الشوق والحنين  
وأجلس انتظر على طيفاً من عندها يأتي، وأنا ما زلت انتظر\* مللت المقاعد  
والمقاهي وملتني المقاصف والردهات، وأغلقت في وجهي كل المنافذ\*  
مركب الشوق يطاردني حتى على اليابسة\* وأنا البجار أبحث عن مدن  
غارقة\* يا طيور النورس خبريها عن شاطئ الأمان\*يا يحار تعالي الآن أغرقي  
مدني وجزري\* أغرقيني\*\* فما للحياة طعم بعد أن غرقت مراكبنا\* وكيف

وضعت في جيبى رقم هاتفي وكتبت اسمي وعنواني، لأنني إذا سقطت  
فجأة أخشى ألا يتعرف علي أحد منكم\* إنني أتصوركم لن تحضروا، وحدها  
أمي التي أخشى على قلبها المتعب\* ماذا أكون إذا لم تحضروا:

"أظل في ثلاجة الموتى طوال ليلتين

يهتز سلك الهاتف البارد في الليل

ويبدأ الرنين مرة ومرتين

يذهب إنسان إلي أمي وينعاني" (2)

أه يا أمي كم حملتك من الهموم والمتاعب!

ألم ينصح أطباء القلب أن لا أدخل عليك، لأنهم لاحظوا اضطراب خفقات قلبك  
الحنون علي في كل مرة كنت أزورك في مركز القلب؟

كنت تسميني آخر العنقود\* صحيح أن العنقود إستوى لكنه يا أمي يبكي  
مثل النساء ما أضع\* ويل لمن يخبي سره

في الليل لامرأة غيرك يا أمي\* أنت المحبوبة\* تصوري أنها تغار منك وأنت  
الآن غائبة عني\* سألني مديع التلفاز مرة: من هي أحب امرأة إلى قلبك؟

فقلت بلا تردد، وكانت تراقب المشهد: أمي\* وأردد ألان أه منا نحن المثقفين  
الجبنة\* جسمي يتثلج وقلبي يرتجف حباً وأحن إلى حزنك الدافئ\* كنت

أهرب من بين إخوتي التسعة في غرفتنا الضيقة التي كنا نحشر فيها حشرا  
لأندس قريبك\* رجلي في الجبس وألمي يزداد وأنت تحمليني على كتفك

إلى المستشفى\* أخالني الآن عارياً في صحراء قاحلة موحشة\* إنها  
الذكريات\*\*\*

\*\*\*\* كنت إستويت في مقعدي بجانب السائق\* نظر إلي باستغراب\* سألني :  
الأخ من البلد؟ فقلت له: نعم\*

سألني مرة أخرى: إبن من أنت؟ فقلت له: أنا يوسف بن إسماعيل\*  
فقال لي أه ابن مريم! أحبته بغل، بعدما أحسست بالاهانة آنذاك: نعم أنا

إبنها وسكت\* وصلت إلى قريتنا، وعندما كنت أتجول بين شوارعها ويتعرف  
الناس علي، يقولون أه أنت ابن مريم\*

كانت مريم البنت الثانية لشيخ عشيرة، تربت في دار أبيها، دار كرم وجود،  
وكانت ذات رأي ومشورة وتذبح للضيف إن جاء في غياب أبيها\* ومن هنا جاءت

شهرتها\* هذه العادة لم تنقطع أبداً فحتى بعد أن تزوجت أبي وهو أفقر حالاً  
بقي بيتنا مضافة لكل القادمين إلى المدينة للعلاج أو التسجيل في الجيش،

أو لقضاء حاجات مثل جهاز العرايس وغيرها\* إخوتي لم يكونوا يتخرجون من  
مناداتهم بأولاد مريم، حتى أبي كنت ألمح في وجهه ظل ابتسامة وهو

يسمع ذلك\* ومع الزمن تعودت، لا، بل أحببت أن يناديني الناس باسم  
أمي\* أليس الشيخ في خطبة الجمعة قال إن الناس يوم القيامة ينادون بيا

فلان ابن فلانة\* وهكذا أنا الآن ابن مريم ولا يعينني أبداً الانتساب إلى أم  
عظيمة، عظيمة أكثر من رجال تخلوا عني عند ساعة امتحان وضيق، وهم

الذين ما فتئوا يرمون شواربهم ويتغنون بأمجاد العشيرة\*

"نحن لا نزال نقومّ الظل بدلا من قيامنا بتقويم العصا" مثل مأثور.

المسافة تأخذنا إلى آخر الدنيا  
نرحل نحو الشمس  
نحو الغيم  
نحو الأفق بلا عينين  
بلا أحزان  
أكتب فوق وسادتي أحلى أمانينا  
بينني وبينك كل الجبال والأوهام  
وخرافات وطقوس غريبة  
وتراتيل مبهمة وأغنية حزينة  
الحزن يجثم فوق صدري • عانقيني • قلت لها • ولا تبوحني بالهوى واكتمي  
السهم في أعماق بئري  
أشربيني وردة من خمور  
وقد كنت أنت ناري وخمري  
إسليبي كل أشيائي وأمري  
إسليبي قمحي ورمحي وأحلامي وفكري  
أنت سحري وقدري  
وكل ما في الهوى العذري من قهر  
ومضيت إلى البعيد ابحث عنك الآن، فلماذا هربت من قدرتي وأنا الجنوبي  
المنفي في وطني؟ لماذا رحلت عني خلف النهر؟ لماذا تركتني للنيران  
تنهش مني؟ قالوا أسقمه الحب قلت بل أسكرني الهم في وطني. إليك  
أيّم صلاتي خمس مرات والشفع والوتر.

لم يعرفوا حينما داهموني في تلك الليلة أن "ألف رجل مسلح لا يستطيعون  
تجريد رجل عار" الحزن يغلف كل المدينة، وأنا وحدي بعدما هجرتني  
يسكرني الضياع اللعين واشرب خمري وحدي. تغيب رؤية الأشياء، تغيب  
الرؤى على لحن يأتي من بعيد" إن تفصل القطرة من بحرها ففي مداه  
منتهى أمرها".

يا حبيبتني  
النهر المقدس لن يفصلني عنك وعنه • وأنا يوسف يا حبيبتني فاطمئني وقري  
عينا فأنا الآن أسير في دروب الجنوب مسلحا بحبك • أسير نحوك أنت مسرى  
القلب ومعراج الخيال، فأنتظريني مهما طال هذا الليل فالنهر لن يفصلني  
عنك • إطمئني ، فانا لك • أنا لحبيبي وحبيبي إلي •

كل شيء هادئ •  
المدينة المحاصرة • الأبواب المغلقة • بعض الوجوه التي تطل من آن لأن من  
بعض النوافذ المغلقة • أصوات الجنازير تتمركز في كل مكان • في الأزقة  
والحارات والشوارع •

يا مدينة السلام، يا مدينة الخير والعطاء والفرح الطفولي كيف لأم فيك أن تحزن وأنا الذي جربت حزن الأم وحزني؟  
نمنا تلك الليلة بلا كهرياء 'بلا رنين للهواتف' الداخل مفقود والخارج مفقود' حظر التجوال ما زال مستمراً غاب الضجيج المعتاد' لا أصوات للقادمين من القرى حيث الباعة بوجوههم المبتسمة والبضائع المعروضة في أزقة الحارات القديمة' غابت دمعة كادت تغلبنى وأنا ابحت عنك' ومن حاجز أمني إلى حاجز أمني وجددتني أغلق باب القلب ' وأفتح عن قلب موجوع وأميز يا حبيبتي ما بين الحب الغالب والحب المغلوب هكذا علمنا المعلم 'حظر التجوال ما زال مستمراً والى أن يرفع حظر التجوال، يقيني ستعود لشوارعها حركة الناس وضجيج القادمين من القرى وأصوات الباعة ، وعندها ستعود دمعتي إلى مجراها'

الجنوب

يا ذاهبين إلى الجنوب

معكم حبيبي راح

هكذا كنت أهجس وأنا في طريقي إلى الجنوب الأعز على قلبي' الجنوب الإنسان ،وليس الجنوب الجغرافيا اللعينة' "الجنوبية" بمدلولها الاجتماعي الذي بات يعني جهة مرتبطة بمستوى من مستويات البناء الاجتماعي 'وفي ضوء المنطق الطبيعي للشمال والجنوب فأينما وليت وجهك فثم جنوب'' وفي الطريق تذكرت أنني محكوم بعقدة الجنوبية من أمل دنقل إلى جنوب لبنان إلى جنوب الكرة الأرضية في صراع الثروة مع الشمال الغني' أي قلب تحمل في جنباتك أيها الجنوبي المغرر به، المصدق للرواية، المنقاد كالأعمى إلى حيث سكنت روحك قبل آلاف السنين 'وتردد تشيعك لعلي "يا علي نحن أهل الجنوب حفاة المدن نزوي سيرتك"' للذهاب إلى هناك فرحتان؛ فرحة بلقاء الوجوه السمر والنساء الجميلات اللواتي لوحتهن شمس الجنوب، وفرحة بلمس عطر هذه الأرض التي بورك فيها وما حولها، حيث القرى المتناثرة التي تفجر في زائرها الحنين' الحنين إلى الماضي السحيق، يوم كانت الأرض أرضنا، ومر عليها آلاف الغرباء ولم يستطيعوا إغتصابها إلى أن جاء " أبناء العم " فأخذوها تحت دعاوى تاريخية وأسانيد كهنوتية خرافية من سحيق الأزمان'

مشيت مؤمناً بقدري فأنا إنسان قدرني عاشق، قلق، محتار رأى الظلم يوماً فكره الظالمين' مؤمن بأن من صفعني على خدي الأيمن سأدير له الأيسر'

ألهذا الجِد وصل بك الجبر والقدر؟ قال قريني '

نعم فثم في كل ملحد شعرة من إيمان، وثم في كل مؤمن كثير من الكفر، وأليس الشيطان بأكثر الناس إستشهاداً بالكتاب المقدس'

نعم ومن الجنوب الى الشمال ' أنا الآن أيمم نحو الشمال في رحلة العودة إلى الأم المقدسة 'نصفين قلبي لم يزل، وأنا المشطى بين أمسي وغدي، بين واقعي، اليوم، وما بين الحلم الذي أعيشه في بلاد مقدسة جئت إليها بسحري المفتون وغرامي وهيامي بها' ومن حيث أتيت تركت نصف قلبي هناك معلقاً ، وها أناذا الآن أسير بنصف قلب' كيف يمكن للإنسان أن يكون منشطراً هكذا ؟ إنه ليس الانشطار بل الوحدة التي ترف بأجنحتها حولي

أي نبوءة هذه!

أي قدر إليه نمشي!

الحق الحق أقول لكم،

ما فائدة الأثواب المزركشة دون نساء ؟ وما فائدة الإنسان دون ذاكرة ومكان ونبوءة وتراب وتراث؟ ما فائدة الجنوب دون قمح وغلل وأغاني الحصيدنة الحزينة والميجنا والعنابا ويا ظريف الطول وقف تقولك رايح عالغربة وبلادك أحسن لك ؟ وأنتشي فتتحرك قدماي بدبكة قديمة ويصطف معي قريني وأقران آخرون وتتحول إلى رقصة هلا وهلا بك يا هلا وسامر يمتد حتى الصباح ، والخيل تلعب في السفح، والفرسان بسيوفهم يتراقصون وأنا أنتشي طربا وأغني مع المغنين "يما موال الهوى يما موالي ، ضرب الخناجر ولا حكم النذل في".

أنا الآن أعبر ذاكرتي إليك أيتها المقدسة ، وأختزن العشق المدفون بقلبي منذ مئات السنين ؛ هذا العشق الجمعي الذي أورثنيه أبائي وأجدادي 'وأحن إلى ندى زهورك وطيب روائح عطرك ' ها أنذا أجتاز حدود القلب إلى القلب ' نصفان قلبي ، ، موجع القلب حيران وأنت ترزحين من ثقل الأغلال، وأنا بكل صحتي هتفت : يا قاتلة الأنبياء والمبشرين والأحبة ' على جنباتك سقط الشهداء الذين لن نكافئهم أبداً حتى لو قدمنا لهم أرواحنا وعلى جنبات روحك إمتزج دمي بدماء من أحب، وتداخل الحلمان ليشكلوا حلماً واحداً أبدياً أخذنا في السمو وأنى له الفراق ' 'حلم الوحدة' 'حلم الحب'

عشرة أيام لا تكفي لكي أجول في الذاكرة المقدسة، أيتها السمراء الغربية عن مدينتي' هكذا صرخت وأنا اجتاز من مكان الروح إلى رائحة الأمكنة' عندما أوقفنتني على حدود الذاكرة تتفرس بهويتي'

فجأة وجدنتني وسط مئات اللحي الكثة السوداء الكثبية' وأنا أهم، وصغيري الذي لا يدرك جوع العالم للطغيان والدمار والفتك بالأبرياء، بعبور مدينتي عبر بوابة "المحبة" التي ستقذفنا إلى حائط صلاتنا الجماعية' حائط مبكنا نحن' لا مبكاهم' إتنايني شعور بالغيثان والتقزز، كأنهم جميعا خرجوا توأ من العصور السحيقة التي عادت لتلقي ظلالها'

توقفت ومشاعر متباينة تتناوني 'من أباح لكم السكنى ها هنا؟ ومن أعطاكم الحق الإلهي بإستباحة ذاكرتي المقدسة الموروثة عبر آلاف السنين'

وها أنذا أهم بلثم تراب أرضك يا أمنا جميعا ' يا لتعاستي جاءوا إليك وأحتلوا ذاكرتي، وأنا الآن أتجول كالسياح بحثاً عنها ' حيانني أحدهم بلهجته الغربية ،وقد رأني وسط هذا الكم من اللحي السوداء والمآزر الغارقة بالظلمة، فلم التفت إليه وتابعت مسيري يتبعني طفلي وأنا لا أبغي سواك'

إقتربت من الحاجز الأول قبل الدخول إلى اللاشعور' أبرزت وثيقتي، فصرخ بي الواقف خلف الأسلاك : لا تكفي' سألني من أين أتيت ألينا في هذه

الطوطم الذي صنعناه لأنفسنا وأحببناه، جئت محملاً بإرث قديم أسأل عن  
الذاكرة المستباحة.

مضى وهو يهتف: إذهب حيث شئت، لأنني ما عدت أملك أن أمنع أحداً من  
التجوال في ثنايا وخبايا حلمه وذاكرته التي لم أستطع حتى الآن إمتلاكها.  
وفي قرارة نفسي صرخت "إرحل عني أيها المغتصب ذاكرتي" ولم أجرؤ  
على رفع صوتي أبداً. إرحلوا جميعاً عني علني أعرف صحبي وأحبتني، وتعود  
بي الذاكرة إلى آلاف السنين المؤودة والى أيام قفا نيك، وفي هذه اللحظات  
إزداد القرف بداخلي وإزداد الغثيان ورأيت الدنيا دوائر في عيني تدور.

قبتان "هما روعتان من روائع ذاكرتي القديمة" ونحوهما يمت صلاتي.  
خلعت نعلي ودخلت إلى حيث يعبق المكان برائحة المسك والعنبر. أدخلت  
يدي في حجر في زاوية العمود كي أتعطر بطهره وأغسل جزءاً من ذنوبي  
الكثيرة. إني مذب يا الهي، مذب. دارت الدنيا بي، أغيب عن الوعي قليلا  
لأعود فأصحو من جديد، يا لروعة الجمال والصانع والبناء، أي تحفة فنية  
أرى.

خرجت مسرعا ومشاعر القهر تزداد بداخلي. كانت لي قبل قليل، ولكنها  
الآن ملك لغيري. كانوا جميعا يقفون أمامي. سألني طفلي الصغير لماذا  
يقفون في طريقنا؟ أنا أكرههم جميعاً. لم أحب. أمسك بطرف قميصي  
وركضنا. وأنا أكرههم مثلك يا بني، لكنك أجراً مني لتقولها بصوت عال، بينما  
أهمسها أنا همساً في قرارة نفسي. أيها اللعين الشقي جئت لتكشف  
عورتني التي حاولت إخفاءها أربعين عاماً وفي لحظة وجد مع نفسي فرحت  
به.

حينما وقفت على أسوارك القديمة عرفت كم أنت جميلة أيتها المقدسة  
التي مر بها وعليها آلاف الأقوام، ولكنها إستعصت أبداً على التطويع  
والتطبيع. في ذاك اليوم التشريني بكيت كما لم أبك يوماً، وتذكرت أغنية  
وطنية كان يبثها التلفاز، قبل دهر من الزمن، كانت صورة الأجابة الشهداء وهم  
على أسوارك ببنادقهم القديمة وكوفياتهم الحمراء ترافق الأغنية. كانوا  
يدافعون عما تبقى لنا من الذاكرة. تذكرتهم جيداً وعادت بي الذاكرة إلى  
الوراء شيئاً فشيئاً "هنا سقطوا" هنا عمداً بدمائهم المدينة التي  
أحبت "كل ذلك أصبح ذكريات".

عينك براكين نائرة  
لون عينيك أغنية مبحرة إلى الأمام  
لونهما أغنية العشق  
أمنية الأحرار

بغد تورق فيه الإزهار  
وتضاء قناديل المحبة والسلام  
عليك السلام

عبرت حيث كنيستي الأولى مهد التكوين ، والقيامة منذ البدء كانت كلمة،  
آية من الآيات وروعة من روائع الزمان، كان احدهم يقبل صديقه ونحن ننتظر  
الدخول إلى القبر المقدس فأنفض الدم في عروقي، ألا يكفي إستباحة  
ذاكرتي حتى تستبيحوا كل ما في القلب من أشياء مقدسة، يا للوقاحة،  
يدنسون ما حافظت عليه منذ آلاف السنين غير عابئين بنا ولا بردة فعلنا،  
وماذا نملك أن نفعل؟ لا هم لهم سوى الشهوة الدموية لكل ما هو  
"غوييم"، إنها النار المقدسة أبحت عنها لا أجدها.

النار المقدسة:  
في خليج من محار  
والدم المتخثر  
شعاع من فرح دموي  
يرقص كهنوت رقصته المميته  
الضحية على الصليب  
والنار المقدسة تتأجج من دم طازج  
وأنا طريح تحت عامود النار  
مكبل اليدين والفم واللسان  
أصرخ... ما من أحد يجيب  
تعوي الذئاب بجانبني  
تنظر إلي نظرة حزينة  
يا كهنوت سيأتي خلاصي من النور  
يا كهنوت  
لا تموت .. النار لا تموت  
في جسد الضحية تغرس الخناجر والحرايب  
تصرخ في ظلمة النهار  
يا مخلص .... يا مخلص  
يا يسوع الزمان الرديء والقهر  
تعال تنتعل خفك الوردي  
تحتضن الأشواك .. تزدهي بتاجك الشوكي  
تعال  
يا صديقا في الليالي الماطرة  
إن القلب ضج بالصراخ  
ضج هذا القلب بنيران المجوس  
إنطفاة في قلبي نيران الأمس  
ومضيت أحمل قيدي وقلبي في الطريق  
يا رفيق  
متعب أنا وعشتار تختار الرجال لتعشقهم

والمزممار يغنيّ نشيد الأناشيد  
هللوا هللوا الليلة عيد  
هللوا الصبح ليس ببعيد  
يا عيد  
أي شيء أتى بك إلى دارنا  
والمركب دون شراع  
وأنا البحار المنفي بوطني  
المكبل بالصمت والنار تحرقني  
تصرخ أصوات القبور  
ويصرخ في الليل  
وأرى وجه أمي في ليل المنافي البعيدة  
تطفئ الريح قناديلي  
من أين لي مصباح غير وجهك يا أمي  
وأنا ما حلمت بغيرك  
أخبريني ماذا أفعل  
فقد ماتت أغانينا  
وفي الحزن غرقت قناديل المحبة  
إنطفأت لتعلن ميلاد فجر جديد  
ميلاد حب جديد  
يدي تخرج من مقبرة المنافي  
وليل الصمت الموحش  
أبعث صلواتي وحبّي  
من محرابي  
وأؤمن  
ما بعد الجفاء من بقاء  
ما بعد الهجر من بقاء  
فطريقي ملئت بانات الهوى  
جفت الأرواح والدماء  
صار القيد ملحاً وماء  
وصار الجرح موال الشقاء  
تعالى نغرق مدن الكذب والنفاق  
نقتل المويقات اللعينة في دربي  
لن يصبح غدي كأمسي  
سأكفر بالصمت الظاهر في خشوع  
لا أريد الركوع  
سأبقى واقفاً بوجه الريح اللعينة  
الحب عزمي وعزيمتي  
سأمتشق الحب حساماً كي أقاتل  
فالحب طريقي ولن أضل الطريق

هربت إلى الوادي حيث دارت معركة أبلى فيها الأحبة بلاء كبيراً ، وحيث أصبح للوادي اسم جديد لم أحفظه . وقد تركوا كل شيء كما كان، لتعود بي الذاكرة إلى المعركة الحقيقية، فأصورها كما الشريط السينمائي ، وأبصر كيف سقطوا يضرجون بالدم الزكي التراب الحبيب ..واحدآ تلو الآخر وأيديهم على الزناد ما غفلت . ألا إنها ساعة الفراق، حيث تصعد الروح الطاهرة خارج البالى من جسد سيهرم يوماً وقد يدجن . رأيت العربات والمدرعات المحترقة في مكانها، كما هي منذ عشرات السنين . وشعرت بالحزن يغلف قلبي .. وأنا أيمم نحو شطري الآخر وقلبي المكلوم بالألام، أبكي ذاكرة لم أحافظ عليها . دخلت إلى دهاليز وتعرجات الذاكرة القديمة ، وعثرت على مدينة ساحلية أضعتها يوماً كما ضيعني أهلي . كل شيء تغير، البيوت والحواري .. الشوارع الضيقة كلها تغيرت . تتكلم الآن لغة لا أعرفها، وترطن بما لم أفهم أو يستقر في ذاكرتي . هذه الزاوية لي يسكنها آخر وتلك ضاعت مني وما عدت بها مطالباً . من أين جاءوا؟ وعلى الشاطئ القديم شاهدت غروب الشمس بكل جمالياته . مشهد بصري جميل، لوحة فنان عظيم . أمسكت بحفنة من تراب الشاطئ ووضعتها في جيبي . أصبح عندي الآن حفنة من تراب، وعدت أدراجي شيئاً فشيئاً أبحث عن الأم المفقودة ، عن المقدس عن سر سارا بكل ما تملك من جمال رباني أخاذ .

الأم المفقودة أين هي الآن .

كنت يوماً أسير في الشوارع القديمة، إذ لقيتني امرأة تلبس السواد وقد نحت الدهر تضاريسها دون تناسق . أوقفتني .. خلتها ممن تعودن إيقاف الناس طالبات العون .. إلا أن شيئاً في سحنتها جذبني إليها . قلت لها: "الله يبعث" . حدتني بنظرة ملؤها الكره وقالت : لا إحساناً أريد منك، بل إن شيئاً ما جذبني إليك لأحدثك عما أنت سادر عنه وغارق في غيك . جفلت هنيهة ثم إنتبهت ، فأخذتها جانباً من الطريق وقلت لها مادم الأمر كذلك ، ما رأيك لو دعوتك لشرب فنجان قهوة . أحنت رأسها موافقة فمضينا .

أحضر النادل ما طلبنا . لماذا لم أنتبه لها من قبل؟ إن فيها شيئاً من أمي . لاحظت تفرسي بها فقالت لي: نعم أنا أشبهها . جحظت عيناى من الهول ولم أصدق . كيف لها أن تعرف ما بداخلي وما أحدث به نفسي بيني وبينى . جذبت فنجانها وشربت رشفة منه .

فجأة قالت أنا أعرف عنك كل شيء ، أو تراك ما عرفتنى بعد؟

إزددت حيرة وتفرست فيها أكثر!

قالت لي: أنت نفس لا تعرف للسكون مكاناً .. حياتك قلق وعيشك صراع وأنت غريب بين أهلك وربك . وأنت ما وطدت النفس على العيش الذليل أو الضيم، وما هادنت يوماً ولا تعرف للرياء طريقاً . فصراعك حاد مع أولئك الذين إمتهنوا الدهاء والخديعة والرياء وجعلوا مكسب يومهم ضحك الرجال على الرجال ..

حاولت أن أوقفها وأوقف حديثها الذي بدا لي درساً في الأخلاق الحميدة إلا أنها أكملت ..

حاربوك لأنهم أدركوا أن روحاً متمردة لا يمكن لها العيش بشخصيتين . إن روحاً، كمثل روحك متمردة، كتب عليها الشقاء والتعثر والهيام في الحب

قلت لها : وأنى لك معرفة بكل ذلك؟  
رشفت رشفة من فجانها، وخلصت وجنتيها قد إحمرتا وبريقاً يلمع في عينيها  
كالبرق في كوانين البلاد التي أحببت.  
قالت لي: لو نظرت إلى داخلي وعرفت كيف يقرأ الإنسان لأدركت من أنا،  
ولماذا أحدثك بحديث يتعب القلب ويشقيه.  
أنا، أيها الشاب المغترب عن بلادك، القادم إلى هذه الأرض الطيبة المباركة  
بحثاً عن المقدس والحقيقة والذاكرة المفقودة، أنا جزء منك\* جزء من روحك  
التي تمردت على الجميع\* همت عنك زمناً كي أرى ما ستفعل دوني، وها  
أنت سائر مثلهم نحو التدجين\*  
صرخت كالمفجوع بأمه، أرجوك أحتاج إلى أكثر من ذلك\*  
أنا أعرف أنني أصبحت جزءاً منهم، ونسيت تعاليم الأحلام الجميلة حول من  
بيت ليله على الطوى\* لكن السيف أصبح خشبياً الآن\* وبينما أنا أحدثها  
نهضت متلفة بمدرقتها السوداء ومشيت، فلحقت بها وأمسكتها ،، لكنها  
كالسراب أفلتت مني ومضت صارخة: إن كنت تريدني فإنك تعرف أين  
تجدني، وأنا بانتظارك ، لكي أعود إليك روحاً متمردة لا تعرف الضياع، وغابت  
عن ناظري\*  
ووجدتني أهيم مرة أخرى بين آلاف الهائمين في الشوارع العتيقة\*\*\* شوارع  
المدينة\*\*\* الحلم الضائع، أبحث عن روح متمردة وذاكرة مفقودة وأم ما زالت  
مفقودة تبحث عن ابن يخلصها من الضياع\*  
في الليل حين يسكن الوجود شبح الأيام الخالية  
وحين يطفو مركبنا في بحار الظلم العاتية  
يسقط الإنسان  
أمتطي صهوات خيل جامحة  
يلحقني قدري الأزلي  
صمتي الأبدى  
يحترق القلب بالنيران  
أبتلع السكين  
أرجع من سفري الطويل  
من أين تبدأ رحلتي وأنا أسافر دون زاد  
بلا رفاق  
يسكنني الليل والآلام  
تسكنني الأحلام  
وأنا أسافر إلى اللامكان واللازمان

قال لي: لكنها من قوم غير قومنا كيف أحببتها؟  
نظرت إليه وتذكرت أيامي معها. إن لغة العشق لا تعرف التمييز. إنها جزء من كل وأنا كل من جزء فأينا يا ترى رأى ما سأروي من حكاية لا ترتوي معها ولا تروى لأحد لم يمسه بعد ضرب من الجنون.  
قلت له: ألم تسمع بما قاله يحيى بن معاذ؟ سألني وماذا قال؟ قلت له قال: "إن مثقال خردلة من الحب أحب إلي من عبادة سبعين عاماً بلا حب".  
خبأت سارا عن أهلي وأدمنت في قلبي عشقها، وقد غابت عني الآن، سرقت مني. لا يهمني ما تقولون عني، لقد سرقت عقلي وقلبي ووجداني منذ اليوم الأول الذي صرخت فيه بوجه هذا العالم الحقير المجنون.

في "هاصديقاً" دخلت.  
كانت ملجأً للثوار على مدى العصور. إحتمى بداخلها مسلمون ومسيحيون ويهود وزنادقة وقوميون وشعوبيون.  
هنا إختبأت أنا قبل ألف عام وأنا مطارد من كل الأقوام.  
هنا إختبأنا معاً، وهنا ابتدأت الرحلة بطقوس خرافية غريبة، وتسمينا أنا وأنت بأسماء غارقة في القديم.

هنا يعيدنا المكان إلى الذاكرة والتعاويد والرهبنة وأغنية الموتى. هنا سيال دمننا واقسمنا قسم "الإخوة" أن لا نجعل أحداً يخرب بيننا وان لا نخون العهد....."

..... من الشرق أتيت وإلى الغرب أتجه بحثاً عما فقدته من أسرار الذاكرة.

إنني ابحت عن الحقيقة في داخلي. "القدرة لله وحده" هكذا هتف قريني.  
في محرابك أتلو دعائي الذي يوثق بيننا ويعيد التأكيد على رباطنا الذي إرتبطنا به منذ القدم.  
....."

اللهم القدير مبدع المخلوقات بقوته الفائقة، نحن العبيد الخاضعين أمام عرشك العظيم، نلتمس من رحمتك البركة علينا وعلى عبدك يوسف. اللهم أعني على الجواب وثبتني عند الامتحان، وأمنحني السلام بعنايتك لأعيش هذه الحياة عيشة الطهارة، وعند الوفاة أن أحظى بالسعادة الدائمة وأكون كوكبا منيرا إلى أبد الدهور.  
.....

"اقسم بالله القدير وأنا واقف موقف الخشوع والخضوع في هذا المكان، وأحلف بقدرتك يميناً مقدسة وبشرفي أن أتعهد بالمحافظة على قوانين الإخوة قولاً وفعلاً، وأعتبر أن وضع يدي في يد أخي إعادة للعهد وللأخوية بيننا.

وإن إقتحام قدمي للإخطار وتجشم المصاعب هو ليتحد مع قدمه وليتشكل منها عمود المقاومة والدفاع.  
وإن ما التمسه من العزة الإلهية لنفسي وأهل بيتي يذكرني بحاجته، ويجعلني مشتغلاً بمئونته وقت حاجته وإغائته عند شدته ومواساته عند محنته وتسليته عند كربته، وقلبي يكون خزانة لحفظ أسراره التي يبوح بها إلي.

وأتعهد أن أحافظ على شرف أخي محافظتي على شرفي\* وان لا أروم به  
سوءاً وأن أجتهد لكي لا أجعل لأحد سبيلاً لإيذائه وأذود عنه ذودي عن  
نفسي وأدفع عنه كل ما يروم الحط من شرفه ، وأرعى حرمة في صيانة  
عرضه وعرض أقرب الناس إليه، وأخذ على نفسي أن لا أغش أخي ولا  
أخدعه بل أنصح له إن رأيت مغشوشاً أو مخدوعاً"

"وإن حثت في يميني أكون مستحقاً قطع جثتي شطرين وإحراقها قرب  
النهر الفاصل بين الشطرين الشرقي والغربي وذرهما في الفضاء بحيث لا  
يبقى منها ذرة واحدة في مكان واحد، وأن يمحي ذكرى وأكون ملعوناً خائناً  
بين الإخوان \* يا رب ثبتني على حفظ هذا القسم العظيم الصادر مني  
بالصدق والإخلاص"

.....

.....

.....

\*\*\*فجأة انتبهت إلى إنني قد أوغلت في دخول المغارة، فعدت إلى حيث  
أتيت لأفكر فيما رأيت من حلم وأنا واقف أتفرج على عجائب "هاصديقاً"

في المقهى القريب من المغارة القديمة، إنتحيت زاوية مظلمة إعتاد كثير من  
الثوار الجلوس إلى مقاعدها \* هناك شعرت بأنني غير ما أنا عليه الآن\* عدت  
إلى أربعة آلاف سنة مضت، رأيت فيما يري النائب الملك الحارث (3) يحمل  
سيفه والجنود من حول يهتفون \* أردت أن أكتب فخفت أولها ، ثم أدركت أن  
كل الحرية في العالم لا تكفي نصف كاتب\* ولكنني بدأت\*\*\*

\*\*الحارث ملك أردني قديم حافظ على عفة الرقيم،(4) الدولة والمدينة  
والأرض والإنسان، حماها من عهر أبناء العم أحفاد أبينا جميعاً إبراهيم\*  
أنت تستحضر الماضي \* هكذا قال لي قريني \*

نعم أنا أفعل ذلك لكي أظهره لنا جميعاً للقادمين من بعدنا ولمن معنا وحولنا

قطع سينمائي :

سنابك الخيل تدكّ مدنهم وبيوتهم وأنا أسير نحوك يا أورسالم وخلفي الماء  
والحجر، تركت من أحببت\*\*أه عندما التفت إليك هل لاحظت كيف شع نور من  
عينيك وأنت تدمعين\* لا تخافي يا حبيبتني فهاهم رجالنا على ظهور خيلهم  
ما هانوا وما إرتضوا الهوان والذل\* وأنا ظمآن للثأر ممن حاولوا تدنيس  
مدينتي\*

قطع سينمائي:

الحارث يكتب قصيدته :-  
وكان الرّحيل عند المساء  
غيوم الأرض تنبئ بالشتاء  
خريف القلب ينمو  
وتنمو في مصاريع القلب

تحيط بذاكرتي  
 وتغلف وجهي بماء المطر  
 مطر  
 هذا أوان الرحيل واشتداد السفر  
 هذا نداء العشق  
 نداء أحلى من كل الصور  
 مطر  
 سائراً نحو النهر كنت  
 وكانت معي صورة عشقي  
 أقاتل تحميني الأشجار على مد النهر  
 أحمل بحري وقدري  
 أحمل نهر العشق  
 أعبّر النهر  
 نحوك أسير مطفاً العينين  
 يلغني الوادي برداء القمر  
 تنادينني المدينة : تعال  
 ما مللت من الانتظار وطول السهر  
 وأنا إليك يا حبيبتني أسير  
 محملاً بالندى وعشق القمر  
 قطع سينمائي:  
 جندي يصيح من الصفوف الخلفية:  
 مولاي نحن معك، نحن معك، فأعبّر بنا النهر نعبره معك، ولن نقول لك اذهب  
 فقاتل أنت وحدك نحن معك، نحن معك  
 الرماح تعلو والجنود يسحبون نصال سيوفهم اللامعة في وهج الظهيرة  
 ويهتفون:  
 المجد لك، المجد لك... المجد للحارث، المجد للبتراء  
 تطمئن نفس الحارث، يحدث نفسه: ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير ضرب  
 السيوف النثار لمن قتلوا أحببتك لن يهدأ لي بال حتى أرى الدماء تملأ  
 شوارع المدينة المبلطة  
 قطع سينمائي:  
 في المقهى أحدث نفسي إنها استعارة قديمة بالية  
 ربما هي في ظنك كذلك يقول قريني إياك أن تقرأها بواقع يومك الحالي،  
 هي كذلك حدثت وما حدث في التاريخ لا يمكن لأحد أن يشطبه من ذاكرتنا  
 قطع سينمائي:  
 الحارث يحدث جنوده ويشير حماستهم وهم المتحمسون أصلاً:  
 لا تكونوا مثلهم  
 إن قتلوا الرضيع على ثدي أمه، فإنني لا أؤذي رضيعاً او طفلاً ولا أقتل حالماً  
 أو عاشقاً، وإياكم وقتل الشيوخ والنساء والأطفال  
 يصحو الحارث من سرحانه، يهمز حصانه الذي اقترب من ماء النهر، فيقف  
 الجنود والجيش من خلفه يترجل، يغرف ماء ليشرب... آه يا ماء القلب وبوابة  
 النصر... فلأتعمد بمائك أيها النهر المقدس... أيها النهر العظيم يخلع

يصرخ:  
 فلتغفري لي أيتها الآلهة صوني نفسي من القروح"  
 المجد للرقيم"  
 يهتف الجنود من خلفه بصوت يهز أركان الوادي،  
 نحن معك يا ملك العرب سر بنا إلى الجبال نسير معك سر بنا إلى الموت  
 نسير معك خذنا معك خذنا معك"  
 الزمان مختلف  
 المكان مختلف  
 زمانان مختلفان  
 يحدث نفسه الحارث هل كانوا يعتقدون إنني سأنكسر وأصمت إن هم  
 إخترقوا مدينتي وقتلوا أعز الناس عندي إن روعي لن يدركها السأم حتى لو  
 بقيت أقاتلهم وحدي إنني الآن أرى مصرعهم من موقعي في هذا الوادي إن  
 غفلت عين عن مدينة، فلنا ألف عين إن قتلوا أحدا فلدينا ألف أخاذ بالثار  
 هذه هي وصيتي يغيب الصوت الصارخ ثم يتردد صده في الواديان يلتفت  
 إلى الجند فيراهم، تشع عيونهم بالتحدي والإصرار على النصر  
 صوت الإبنة:  
 أبي لا مفر  
 هي الحرب لكنني أحب أن تعود إلي منتصراً أحبك فلا تغفل عينك عن  
 غدرهم أحب أن تعود إلي يا أبي لأنسل إلي دفئك في الليالي الماطرة  
 الباردة أبي إن كان لا مفر من الحرب، فإني أحب أن تعود إلي إلى مدينتك  
 منتصراً  
 قطع سينمائي:  
 الجيش على مشارف اورسالم الحارث في مقدمة الجيوش صمت رهيب  
 ومهيب ينظر إليهم فيرى شعاع النصر في العيون فيطمئن قلبه، فما ضاع  
 شعب أو انهزم وفيه جند يحبون الموت فتسعى لهم الحياة ، ينبذون العيش  
 الرغيد فتهبهم الدنيا أجمل متعها النساء الجميلات قصصن جدائلهن وربطنها  
 بمعاصمكم وأبين أن يسرحن شعورهن حتى تعودوا منتصرين، فلا تخذلوهن  
 يصيح صوت في البرية  
 يسمع الحارث صوتاً يناديه من بعيد فيتلفت فلا يرى شيئاً، ثم يلتفت فيرى  
 جمع الجنود أكبر مما كان تدور الدوائر في عينيه يرى جنة بوسع الأرض  
 ونهرين من عسل وخمر  
 اليوم يومك  
 إن خذلك سيفك  
 فسوف تلبس العار لمن يخلفونك  
 فكن سيفاً بتاراً ، وصدرك درع لمن وهبوك المحبة ينتشي فتلمع السيوف  
 تختلط الأصوات تتناثر الرؤوس على خشبة المسرح والدماء تغطي الساحة  
 الجند فوق الأسوار يهبون حياتهم لمجدك الأصوات تخفت شيئاً فشيئاً وأنت  
 تنظر فلا ترى سوى النصر بريقاً يخفق في الأعالي، فتشهق روحك بالفرح  
 الطفولي

هاهو النصر يا مدينتي التي أحببت\* تزيني يا عروسي\* المجد والرقيم توأمان

الحب والبتراء توأمان\*

كل الأيتام بلا مأوى

وأنت وحدك

تأتي على فرس بيضاء

المدينة المقدسة تفتح باب قلبها لك\* النساء يسكنن جرار الخمر على  
مداخل المدينة الوردية وينثرن الرز وقبلهن على جباه ووجنات المقاتلين،  
ويرتمين في أحضان من أحبن بعد فراق\* هذا يومك يا مدينتي التي رفضت  
أن تدخل في فراش معتد أثيم أو تنام على صدر من خانوا العهود، اليوم  
يومك، اليوم مجدك\*

(تصفيق حار من الجمهور في المسرح)

.....تلفت فلم أر أحداً غيري في المقهى\* آخر الليل حملت أوراقى ثم  
انسحبت رويداً رويداً وفي إذني طنين تصفيق الجمهور للبطل\*

أناس من مختلف الجنسيات يجتازون باب القلب ، باعة يبيعون التذكارت  
التراثية\* على بلاط الشوارع مشيت هائماً لا ألوى على شيء\* يصرخ بي  
قربني: عد من حيث أتيت، لا مكان لك ها هنا\* أنت بلا ذاكرة ولا مكان  
فاذهب وأبحث لنفسك عن مكان تنزوي فيه مئات السنين، وترى كيف يدور  
الزمان وكيف سيأتي زمان، القابض فيه على ذاكرته كالقابض على الجمر\*  
حملت صليبي ومشيت\* ثمة سحر من نوع خاص يدخل قلبك سراً مع الهواء  
ولا تستطيع إخراجه من قلبك الهرم الذي أضناه التامر المستمر على  
الذاكرة\*

أنا لم أسترح في اليوم السابع\* فمن إستراح\*

رغم المطر الذي إنهمر اليوم، خرجت مبكراً ميمماً وجهي نحو القبلة الأولى  
ومسراي ومعراجي\* سرت في شوارعها حتى إبتل العظم مني\* كانوا يمرون  
مسرعين محتمين بمظلاتهم\* ركبت الباص المتجه إلى الشطر الغربي من  
المدينة فمررت بحي المائة باب\* هذا انعزال تاريخي\* هنا يخرج التاريخ  
القروسطي بكل ظلماته\*\* "تحسبهم جميعاً"\*\*\* نعم لكن قلوبنا نحن  
شئى\* أي صباح أطلعني اليوم لأرى كيف أصبحت هذه البقعة مدناً يختال فيها  
كل من هب ودب من القادمين بلا ذاكرة إلى ذاكرتنا القديمة\*

تقفز عيني بين الجموع تبحث عنك، عن خصلة من شعرك\* وأصرخ في  
الناس: أينها؟ أين أنت؟ ولا يأتي غير رجع الصدى\*

عارياً من كل إيماني كنت\* عارياً من توسلاتي ومن صلواتي ومن كهنوت  
الأجداد الذين أورثوني هذا الحلم\* أشم رائحتك\* ذئب في البرية يطارد فريسته  
يشتمها عن بعد\* أجيل النظر أسمع حفيف الأشجار\*\* حركات الماء المتسربة  
بين ثنايا الأرض\* أسمع دبيب النمل ومضاجعة الديدان وأصوات الخنافس  
تهدهد صغارها\* أسمع صرخات الروح منذ عاد وشمود وهو يراني وأراه يتحرك  
حولي وأنا أجس الأرض وأجوس الوديان\* لا صرخة تند ولا همهمة\* أسمع

عن أي عشق تسونامي أتحدث؟ تسألني الجنية القرين ما بك؟ أبي مس أم بي وجع منك وأضحك ملء فمي. أرى أمي التي أودعتها جنبات الثرى، اعوي كذئب جريح مرغته بالتراب جراح أئخنها القناصون بالنبال، وأحس بدمي يسيل على الصليب.

يسيل كنهر الأردن المتدفق في شتاءات الكوانين. يهدر الآن تحتني جائعاً هائماً يلوي نحو "الميت" ليموت ماؤه وينتهي المطاف. وصرخت كالملدوغ من جحر مرتين. لست مؤمناً بل شقيماً ولدت، وشقيماً عشت، وشقيماً سأموت. يلعنني التراب إذا إنا نسيك يوماً. فلتفترق كل خلية من جسدي عن أختها إن أنا خنت "العهد".

النهر تحتني يهدر وأنا أبحث عن حب خلاص فقدته. جرفته موجة غاضبة غاضبة مضت إلى غير هذا المكان. أشم رائح الأرض العابقة بالعطر. العابقة بالطهر المتوضئة بماء الندى الصافي الذي لم يمسه إنس ولا جان، لا من قبل، ولا من بعد.

أهيم كمن ضيع نفسه، وأسعى إليك سعي المطمئن وبي وجل وبي رجس. حملته من الصليب الأول في هذه الدنيا. حملته أم حملتني إياه. يا من لا قبل ولا بعد. الأول والآخر. البادئ والمبتدأ. الآخر وليس الأخير الصامد الصمد العالي القدير القادر. يا من حلت روحه بين أضلعي، وأنا من يومها أهيم في البطين. ليس من روح لأسكن إليها، لا ولا خيل أسابقها ممتشفاً قدري، ليس لدي سوى السلاح السري أحمله،، أيمم نحوك باحثاً عن روح هربت مني، فرت كغزالة هاربة من جور القناصين. أيمم نحو قبلة ما زالت تسكن فينا.

النهر يفيض كما لم يكن يوماً وأنا أهمس للعصافير. أمشي نحو الأرض التي اشتقت إليها، فأنا منك وأنت مني. أنت حللت بجسدي وأنا شربتك ماء طاهراً، فان إتحدث الآن بي فأنا منذ القدم متحد بك. نبت منك صحراوي. عشت على ماء الندى وأرتويت. أحس بأنني متفرد بين ارض اليباب أنت، أرض ميلادي الجديد. علميني كتلميذ يدخل صفه الأول، علميني كأمي يرتشف الأحرف الأولى ليكون الكلمات. علميني أن أقرأ. أن أقرأ.

ها أنذا أدخل المحراب برجلي اليمنى مشمرا عن ساقى اليسرى. أركع، سيفك فوق رأسي. وأنا وحدي ليس معي إلا صغيرة شعر صغيرة أختها في جيبتي. أحمل صغيرتك الآن أمام المحراب أضمها بيدي وأقبلها. هي رفيقي. ملجأ عند القلق والتوتر. كنت أريد أن أهرب فخفت أن أتحول إلى عامود من الملح، والبحر الميت ينظر إلي وأنا أنظر للعدم. وجدتني أحمل ظمأي التاريخي معي وأعب من ماء الندى وأسقي تشققات روحي علي أصحو منك وأعود إليك.

أنا يوسف قبل أن تلقي بي في البحر، ليحملني بعيداً عنك مخافة العسس الذين ملأوا البلاد. وقد عشت طريداً شريداً ولم أستسلم للرياح العاتية. وها أنذا أعود إليك مدرعاً بالمحبة، محصناً بالينابيع القديمة. أدخل المحراب الآن، السيف فوق عنقي، القسم أمامي، وأنت قسمي الذي به أقسمت.

أقسمت بالقديم والجديد والمتجدد، أقسم بمن لا يسألني بعد اليوم من أنت، لأنني أعرفه معرفة اليقين ويعرفني معرفة المتيقن، دخلت المحراب الآن، ومددت إلي يداً وأنا الذي ما نمت منذ حملت الصليب وذرعت به الطرقات القديمة، الآن أرتاح بين يديك، أنام وأصحو بلا وجل أو خوف ممن يطرقون بابي عند منتصف الليل، أنام عميقاً لأنني واثق بين يديك، أنام وأصحو ثم أصحو لأغفو، لأصحو... وأصحو لأنام مطمئناً، صليبي فوق صدري وصدري يخبئ كل الآلام، آلام الدروب التي مشيتها، إحميني مني، أو إحم مني!!

أحمل صليبي معي أينما ذهبت،  
صحوت فجأة لأجد نساء بأثواب بيضاء ورجالاً يحملون مجساتهم يحيطون بي،  
وأحدهم يحدثني: الحمد للرب أننا أسرعنا بك وإلا كنت في عالم آخر، غبت عن الوعي.

رأيت صليبا ذهبيا كانت أهدتني إياه يتدلى فوق صدري، وصورتها التي أحملها معي، أينما وليت وجهي، موضوعة على ركن بجانبني، لم أجرؤ على النظر إليها، رأيتها تبكي والدموع تسيل دماً على وجنتيها الجميلتين... صحوت على هزات عنيفة والطبيب يضع الأوكسجين على فمي وأنفي، نظرت إلى ركن الطاولة فلم أجد صورتها.

دموعي تنهمر، أحسست بها رغم ما أنا فيه والجميع ينظرون إلي، أشرت لهم ما بين الصحو وبداية الغفوة إلى صدري، قال الطبيب ستكون بخير فأغمضت عيني، لماذا لا تفهمون؟ أشرت لهم مرة أخرى، فأمسكت أختي يدي تحتضنهما، أنا أعني الصليب، وفجأة رأيت وادياً سحيقاً، حاولت أن أقف فلم أعتز على أرض أضع عليها قدمي، ورأيت الصليب الذهبي في آخر الوادي، طرت إليه فرحاً وكان لي جناحين، فلم أستطع الوصول إليه.

هزات عنيفة تهز جسدي، أختي تنظر إلي مستسلمة، وآخرون لا أعلمهم يحيطون بي، الطبيب يخلع جهاز التنفس، كنت أراهم وهم يغطون وجهي بشرشف أبيض، صرخت فيهم والبرودة بدأت تسري بجسمي، فلم يسمعني أحد، سمعت أصوات أقدامهم تنسحب، وبدا صمت رهيب، فجأة رأيتها تعطيني الصليب الذهبي الذي ضيعته، فأخذت أبكي، رن جهاز قرب رأسي وسمعت أحدهم يهرع نحوي، ثم رأيت كثيرين حولي، زالت البرودة وأنا أحتضن صليبي الذهبي وهي تبكي إلى جانبي، وتقول لي لا تخف فالنهر لن يغير مجراه.

فجأة رأيتني قرب قبرها أبكي،  
رفض الجميع أن أسير في جنازتها، وصوت يلاحقني: أيها الآثم لماذا ضيعت الصليب لماذا فرطت به؟

بكيت قرب قبرها طويلاً ووعيلاً، رأيتها بملابسها البيضاء تتبسم لي، مددت يدي لألمسها، فما لامست غير الفراغ، قالت لي لا تخف فأنا دوماً معك، أعود إليك كلما ناديتني فلا تخف أبداً، ومن بعيد كان رجل يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال قائل فيما قرأت، أن الناس يشاهدون في تلك المنطقة شاباً اعتادوا عليه، يتسلل في هجيع الليل خلسة لينام قربها، حيث النهر يغطيها وحيث

بين النهر وبين القبر المقدس سيمضي ردحاً كبيراً من حياته\*

الصمت، ألوذ بالصمت لأنه الجواب اليليق على ما يجري، وما يجري ليس سهلاً على أحد أن يتحملة\* وليس هينا على القلب والوجدان المشحون بالحب منذ آلاف السنين، المشحون بالكبرياء والكرامة والحنين إلى المدينة التي بورك فيها ومن فيها وما حولها\*

أغادر، وتقول لي: يا يوسف إبق\* وأنا أهتف أيضا ومجددا النهر المقدس هو قلبي الممتد من الشرق إليك\* الرابط ما بين الشريان الشرقي والغربي\* ولك أيتها المدينة الذاكرة المفقودة التي أحببت فيها الحب القديم منذ العصور السحيقة حتى نهاية الزمان، سارا، لك كل هذا البهاء والدعاء ، وأعود إلى حيث تغيب الذاكرة، حيث لا مستقر بدونك ، وأنا أغيب عن الوعي رويدا رويدا\*

كل شيء هادئ  
كل شيء عادي

لا مفر من الروتين القاتل الناخر للجسد وللروح، هل ثم كسر للرتابة وللجفاف والقهر المعشش في الأعماق هل ثم نبض جديد للحب والحياة ؟ لست أدري\*

أحبك\* أسميك الحب\* فالحب معانقة الطاعة ومباينة المخالفة\* تأتينني بفرح جديد للحياة وتبشرينني بالمحبة والرقة والعطف\* كيف لا أحنو وأنت من علمتني الحنو\* كيف لا أفرح وأنت الفرحة القادم لينير قلبي\* أعلم أن يدك الدافئتين وعينيك الحانيتين ستعلمانني الحب أكثر مما تعلمت حتى الآن\* فتعالى وأسرعني لتحتلي قلبي وتعلميني الحب، يا من اجهل حتى الآن أينك\*

خربشت بعض الأوراق قد اسميها رواية، وقد تكون نصاً ثريا لا أعلم\* كتبت صفحات كثيرة لا أعلم ما الواصل بينها\* هل أسميها صياح الديك ؟ لكي تكون عبرة لمن يبيعون أحلامنا بثلاثين من الفضة قبل شروق الشمس وصياح الديك\* ما الذي يمكن لكاتب أن يفعله غير الحب والعشق الأبدي ونبض القلب المستمر بالهيجان\* هل يمكن أن تكون كاتباً وعاقلاً في وقت واحد؟ ثمة حاجة لكسر الرتابة والتقاليد الرصينة ، تلك التي تخفي خلفها أهوالاً من الفحش\* أما التصعلك على بوابة الحلم القادم منك أيتها الأم الرؤوم فهو حكاية أخرى\*

أحبك

كلمة قلتها ، غيرت جدول أعمال عمري ويومي وسرعت في إيقاع نبض القلب المتعب بالهموم، وأحالتني إلى روح هائمة في دنيا الله الواسعة\*  
أحبك

فأنت نبضي الذي به أعيش، وأنت ملح خبزي وكفاي اليومي \* ربنا لا تحرم  
القلب من الدخول في التجربة  
ولقد ذكرتك \*\* فأذكرني حبا ما زال حبيس فؤاد حزين  
وأذكرني الأيام التي عشناها حبا  
أه منك أيتها المكفنة بالغياب  
المسريلة بالهجر والبعد  
كم أشتاق إلى قبة توقظ في حنين أيامنا الماضية  
عودي إلي فالنهر ما زال دائم الجريان  
فالنهر عمدا  
والنهر طهر قلبينا  
فأنتنيا قلباً طاهراً مطهراً  
أعلم أنني المغني الذي أغضب المخرج والمسرح والممثلين  
والجمهور\* فضائي صرخة وغنائي يزعجكم ويقض في الليل مضاجعكم، لكنني  
سأواصل الغناء\*

عند النهر المقدس خلعت كل ملابسي \* تعريت كي أتطهر من هذا الدرن ،  
ونحوك أيها النهر الخالد فينا سأيمم كي أتوحد بطين طميك ، لأنني عندها  
أعلم أنني حي \* وأنت تعلمين انه كلما أحبتك قسيوت علي، وكلما طرقت  
بابك أغلقت في وجهي النوافذ، وكلما طلبت حنو يدك أسلمتني للجمر  
والنيران تأكل من لحمي \* أحبك رغم كل شيء فأنت خالدة كما الوطن الخالد

أدنو منك واهمس في إذنيك وأنت تلهين، وأدعو : رب لم جعلتني كيوسف  
في إخوته ، ولم جعلت قلوبهم كقطعة صخر وأنت العالم بما تخفي القلوب ؟  
سنوات مضت على الرحيل الأول والرحيل الثاني، ملأت روعي بالقروح  
وجسدي بالطعنات ، وأثقلت القلب وفرقت الصحبة \* أنها سنوات عمري  
العجاف\* لم يبق إلّاك أيتها الأم ، فراقنا عنك لن يطول وأبنتك المهاجر إستظل  
بأناس أذاقوه العذاب ، إحتمى بهم فأسلموه للهوان\* رحى وحدي أدوي  
النفس الأبية وأردد "وهبتني يا الهي قلباً محباً لكنهم لا يعلمون"  
وعندما تنشدني عينك أرنو للصمت وأضمك لقلبي، أشعر أنا رفاق وإخوة  
وعشيرة وحزب وكل ما في القاموس من كلمات\*\*

"أنا يوسف يا أبي

إخوتي لا يريدونني بينهم

وهم طردوني من الحقل

وهم سمموا عني يا أبي

فماذا صنعت وهم أوقعوني في الجب

واتهموا الذئب،

والذئب أرحم من إخوتي \* " (5)

إنني أقدم طلب إنتسابي إليك فتعالني لكي نمزق كراساتنا القديمة ، ونصنع  
عالمًا جديدًا للمحبين فقط ، لا للذين يملأ السواد قلوبهم\*الآن أدرك أن  
عالمك عالمي، ومواجعك برنامجي ورؤية عينيك إستراتيجية مستقبلية،  
لأنني بعد اليوم سأنام مطمئناً\*جسدي لك المتراس\*\* جسدي لك  
الجدار\*\*\*\*\*جسد

الجسد معرفة وحقيقة مطلقة، ولادة وأفول، حياة وموت، مبتدأ وخبر، روح كاملة وماض سحيق وحاضر باهر ومستقبل يفيض حناناً  
الحب إيمان والجسد عبادة وإمتلاك للذات المتماوجة مع أثير الروح:

إلهي ثوب جسمي دنسته

ذنوب حملها أبداً ثقيل

الهي جد بعفوك فاني

على الأبواب منكسر ذليل " (6)

الجسد حياة، إشارة البدء، نبض وحريق وانطفاء، الجسد ليس مجرد نشوة أو شهوة عابرة أو حاجة مقضية، بل هو سبر للأغوار، إكتشاف للنفس، إمتلاك للوعي والحقيقة والمطلق، تنفس في المسامات والتفاصيل، قراءة سيكولوجية، لان المعرفة إبتدأت من الجسد فالحب تصوف والجسد مفاوز هذا التصوف، وإندغام في الذات حلول وإمتزاج عذب، الجسد اشتهاه وإبتهاه، إندماج وإنفعال، إختصار للمسافات وبوح بالسر الأبدي، سفر قديم، سباحة في الأثير العابق باللذة، الجسد هو الحقيقة الغائبة،

الفريضة الأولى في الكون، كن، فكان الجسد أولاً وكنت أنت الرغبة الأولى، جسد يفيض كالنهر بالذات،

جبال وسهول ووديان، وخيلي تطارد في المدى وتغوص في المسامات، يقطر منها المطر الدافئ يوصلني إليك ويوصلك إلي،

وأنت تملكين ما يطفئ النار المتوهجة واللهيب، شمسي توشك على المغيب فقربي بيننا المسافات وأتركيني أجوس البراري، وفمي يلتذ بماء النهر الدافق،

الجسد حس وانصهار وبهاء،، لذة إلهية الميعاد وخوض في عباب وأنا سباح ماهر لكنني أخشى الغرق في النهر رغم أن البحار الكبيرة لم تتعبنى،

وحين تفصد العرق بين يدي

وكنت بكامل الأنوثة

أحسست بأنني تومض اللحظات لدي

وأنت المعرفة والكون والإحساس

كنت كهائم لا يدري من أين يبدأ أو ينتهي أو أين يحل،

خرجت في ذلك اليوم والدموع تملأ مقلتي،

إن النفس الأبية قد علمت ما لحق بها من ضيم وجفاء ونكران، عرفت أن أولئك الذين يراهنون على ترويض النفس الأبية خاسرون وإهمون، أدركت أن النفس الحرة التي رضعت حليب الأمهات الطاهرات لا يمكن أن ترضى بالزبد الذي يذهب جفاء، ولا يمكث في الأرض، كما أدركت عذابات الرفض، قلت في نفسي إنه الرفض المؤدج، فصاح قريني: وما علاقة ذا بذى؟

قلت له هوأي جنوبي، أيمم نحو رابية مقدسة أمشي لها ومن أجلها، من زقاق إلى زقاق، ومن عاصمة عربية إلى أخرى، وكل عاصمة تسلمني للأخرى، متاهات، أجمع الصحب ممن باتوا ليلهم على الطوى أحرارا وعاهدوا عهد "الإخوة" أن تبقى النفس عزيزة،

مطاردون محاربون محاصرون من كل الجهات، وما إعتادوا الذلة أو باتو على ضيم أو أذى، يذودون عن الحمى، سلاحهم لا يخذلهم، سلاحهم

...

إنني أحنُّ إلى سارا وأهذي في هذا الزمان المليء بالهذيان\* فكل شيء نراه هذياناً وكل ما نلمسه ونعيشه ونأكله هو حالة من حالات الهذيان\* وللهذيان وجه آخر، هو وجه العشق الصوفي، العشق المتماهي حينما يصبح الحبيب ظل المحبوب، أو تحل روحه في روحي ، أو حينما نتحد نحن الاثنين معا لنكون واحداً\* الاتحاد بين جسدينا وروحينا ، وبين الماضي وبين الحاضر، بين نظرنا إلى الآتي ونظرنا إلى ما هو مستقبلي وما بينهما من أمور متشابهات\*

إياك والشبهات وليس المتشابهات\* فكل ما يوحي بالمستقبل أحمله الآن بين دفتي قلب موجوع، وما بين الظالم والمظلوم ثمة شعرة، وما بين القاتل والمقتول ثمة لحظة فاصلة يتحول الأمر إلى عكسه، وتجل الروح مكان غيرها\* هي الذاكرة الأولى الآن تحل بين شغاف قلبي لتحملني الهم كبيرا كما حملته من قبل يوم ودعني الأهل والأصحاب والقوا بي في جب المصيبة والهزيمة والنكبة والنكسة\*

قررت أن الملم حاجياتي ومشاعري وحزني ومغادرة المدينة البهية لأعود إلى واقعي المر الذي به أحيا وأنسى جميع من أحببتهم وعرفتهم\* نصفان قلبي\* نصف معلق فوق هواء جبالك، ونصف يمتزج بهواء مدينتي المقدسة\* جناحان هما بدونهما لا أستطيع الطيران أو التحليق\* عابرون في فراغ مقيم ودهاليز مظلمة من العصور السحيقة\* أقوام بدائيون وأشباح كثيرة\* نمت تلك الليلة مضطرباً، زارتني الكوابيس المخيفة\* كم أنا حزين على فراقك ووداعك أيتها الحبيبة يا من حفرت بصماتك الواضحة المقدسة في قلبي وعقلي ووجداني وجاء يهتف أنا لحبيبي وحبيبي إلي\*

## انتهت عمان 24 أيار 2006

### الهوامش

- 1- اقتباسات صوفية
- 2- من قصيدة لأحمد حجازي
- 3- الحارث الثالث ملك من ملوك الأنباط 87 - 62 ق . م حاصر اليهود في عدة مواقع وحاصر القدس استنجد به أهل دمشق فلبى نداءهم وخلصهم من السلوقيين.
- 4- الإسم القديم للبتراء.
- 5- من قصيدة لمحمود درويش
- 6- شعر صوفي